القرآن وجذور الإلحاد

د. جميل أبو العباس زكير الريان

مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة بكلية الآداب- جامعة المنيا- مصر

لا نستطيع أن ننكر أن فكرة الصراع بين الإيمان والكفر- الذي يدخل في عباءته الإلحاد- لم تكن وليدة العصر الحديث، وإن كانت قد تفاقمت حدة هذا الصراع في عصرنا الحالي، فجذورها متأصلة منذ فجر التاريخ؛ فلم يكن عزوف "إبليس" (اللعين) عن السجود لـ"آدم" (عليه السلام) بعد أن أمره الله بذلك إلا نقطة بداية.

على هذا، أضحى العالم في عمومه وعالمنا العربي المعاصر على وجه الخصوص، يعيش في حالة من الاضطراب والصراع بين قضيتي الإيمان والكفر، أو الحق والباطل، أو الخير والشر. وقد ارتبط كل مفهوم من هذه المفاهيم بالآخر، حيث أصبح لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر، حتى لم يعد من تمام الأمر الحديث عن الإيمان في غياب الكفر، بشكل أو بآخر.

ونظرًا لأن قضية الإلحاد في عصرنا هذا أصبحت شائكة بل ومثيرة إلى حد كبير، وذلك مرجِعُه عدة أسباب من بينها؛ المفاهيم المتعددة لمعنى الإلحاد ومن ثم اختلاف صوره واتجاهاته ومذاهبه وفلسفاته وبالتالي اختلاف أتباعه فيما بينهم، ومن ثم تعقد مشكلة الإلحاد ذاتها، ناهيك عن أن تلك القضية قد انتابها الكثير من الغموض، والأغاليط، والخلط بين موضوعات متعددة ومتشعبة، فكان لزامًا أن نبحث عن جذور المشكلة ثم نعود إلى كتاب الله لمعرفة العلاج.

- بين الغيب والمادة:

إذا كان القرآن الكريم يدعونا للإيمان بالغيب، إلا أنه سبحانه يعلم أن النفس البشرية التي خلقها تميل لما هو حسي ومادي، فقدم لنا –في القرآن– الكثير من الشواهد الحسية والتجريبية، التي تعضد من إيمان العبد بربه، فأمرنا بداية بالنظر والتفكر في الكون من حولنا (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) [الروم : ٨] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت : ٢٠]، بل ووعد عز وجل بإظهار هذه الآيات حتى لا يبقى حجة لأحد إلا العناد والاستكبار (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت : ٥٣].

ويقول الحق سبحانه: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر: ٩]، وفي هذه الآية الكريمة يريد الحق أن ينقلنا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة حتى تطمئن قلوبنا.

فنجد أنه كما أمرنا– سبحانه– بالإيمان به، وبكتبه، وبرسله، وبالملائكة، وبالجنة والنار، وهو الإيمان بالغيب، إلا أنه بين لنا –جل شأنه– الشواهد الحسية والمادية؛ من خلق أنفسنا وخلق السماوات والأرض، والتي تؤكد وجود الخالق والصانع لكل هذه المخلوقات من حولنا، وهو ما أسميه دليل الإثبات المادي لوجود الله سبحانه وتعالى.

- الشهوات والشبهات:

في حقيقة الأمر، لا تخرج صفات الملحدين عن أمرين: أولاهما، اتباع الشهوات، والأخرى، اتباع الشبهات. فأما اتباع الشهوات، فهي تلك الصفة التي تهدم كل ما هو فطري يستقيم والحياة الإنسانية، بل ولا تبني عقيدةً صحيحةً ولا علما ولا فكرا سليما، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:"أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ

هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) (الجاثية: ٢٣-٢٧).

هنا نلاحظ أن الله تعالى قد ذكر أصحاب الهوى وكيف أنهم اتخذوا الهوى إلهًا يُعبد من دونه، ثم يبين أنه سبحانه هداهم لطريق الحق فلم يهتدوا، وضَّلوا وهُم على علمٍ في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون، لذا فنجد كثير من الملحدين من العلماء والمثقفين ولكنهم خالفوا الفطرة السوية فضَّلوا عن طريق الحق فختم الله على سمعهم فلا يسمعون كلامه، وختم على قلوبهم فلا يعقلون من القرآن إعجازه وبيانه، وعمُوا عن الحق فلا يرون نوره وسراجه. ثم يختم الآية الكريمة بقوله: فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟! والتي توضح أن هذا الملحد متبع الهوى طالما أنه قد اختار طريق الهوى فلن يجد طريق الهداية إلا إن عاد من طريقه هذا.

أما أتباع الشبهات، فتراهم يحاولون أن يضربوا بعض الآيات ببعضها فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهذا ما يفعله الكثيرون من الملحدين العرب. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى منذ أكثر من أربعة ألف وأربعمائة سنة يصف أولئك الملحدين بأنهم يتبعون (الظن) ولا يوجد دليل علمي واحد يثبت صدق ما يقولون وذلك في قوله:"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ" (ص: الآية ٢٧) وهذا الظن في نكرانهم لخلق السماوات والأرض يتعدى إلى ظنون أخرى، كنظرية التطور التي

يتشدقون بها، وهي لا تفسر نشأة الحياة ولا نشأة الخلية الحية الأولى ولا نشأة الأنواع، فالأمر ظن وتخمين فحسب.

إن ما يدحض شبهات هؤلاء الملحدين في إنكارهم لقضية الخالق والخلق جاء في قوله سبحانه وتعالى:"أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ (٣٦) (الطور: الآية ٣٥:٣٦)

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الإلوهية، فقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا"(١).

وهذا السؤال سيظل بلا إجابة يقينية لدى الملحدين، وأفضل ما لديهم هو التهرب منه. وعلى هذا يتضح أنه مهما قالوا ومهما زعموا فإن أقوالهم مردودة عليهم وأدلتهم على نكران وجود الله واهية ولا أساس لها، فكل ذي فطرة سليمة يقر ويعترف بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

- العناد والاستكبار:

أيضا من أهم صفات الملحدين، نكرانهم لآيات الله عز وجل، وكفرهم بها حتى قبل أن يستمعوا إليها، وقبل أن يتفكروا فيها، وهذا هو حالهم. تجده لا يريد أن يستمع إليك ولسان حاله يقول: عليك أن تنصت إليَّ، فأنا وأنا فقط كلامي هو الحق وما دونه باطل حتى لو كان من عند الله.

هذا بالإضافة إلى استخدام الملحد لأسلوب المراوغة–وهي صفة نجدها في كثير من الملحدين–، فالله يطلب منهم أن يستمعوا للآيات ويتفكروا فيها، فيخرجون

---

(١) انظر: ابن كثير: **تفسير ابن كثير**/سورة الطور.

عن القضية إلى قضية أخرى وهي مطالبتهم بإحياء آبائهم ويرد عليهم القرآن في موضع آخر من آيات الذكر الحكيم بقوله سبحانه وتعالى:" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) " (فُصلت: الآية ٣٩: ٤٠) وهذا دليل عملي من الله سبحانه وتعالى لأولئك الملحدين يدحض من خلاله حججهم الواهية بطريقة حسية فيأخذهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة وكأنه سبحانه أراد أن يقول لهم ألم تكن هذه الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا نبات ثم نزل عليها الماء فأصبحت حية ألم تكن آية كبرى من آيات الله، ألم تكن دليلًا على أنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.

- موقف الملحد من الإسلام:

إن أخطر ما وقع فيه الملحدون هو وضعهم للأديان جميعها في بوتقة واحدة، وهذا جور عظيم. فإذا كان الملحدون في الغرب لم يجدوا في المسيحية ما يتفق وطبيعتهم الفطرية السليمة، ذلك لأنها لا تُلبي رغبات الإنسان العاقل صاحب الفطرة السوية، بل والأسوأ من ذلك ما وجدوه فيها من انتهاكات صارخة لقضية الإلوهية وخاصة في عقيدة التثليث. الأمر الذي جعل الإنسان الغربي في حيرة وتخبط؛ إما أن يختار عقيدة تنافي العقل والفطرة وعليه أن يخضع لها دون أن يتفوه بكلمة أو أن يختار الإلحاد بديلًا عن هذا الدين.

فإن الأمر يزداد خطورة حين نرى في بلادنا الشرقية والعربية تبني ملحدي العرب أفكار ملحدي الغرب وتقليدهم تقليدا أعمى -بالإضافة إلى أفعال بعض المسلمين التي تسيء إلى الإسلام ولا تمثله بأي شكل من الأشكال-، الأمر الذي أدى في النهاية إلى جعلهم يخلعون على الإسلام كل الصفات المنافية للفطرة

السليمة التي كان قد خلعها ملحدو الغرب على المسيحية، وبذلك وقع ملحدو الشرق في فخ قياس الغائب على الشاهد دون أن يدرسوا الإسلام وأن يتفهموا معانيه السامية والراقية وكيف أنه بحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

- الخاتمة:

إنه حقا شيئًا مثيرًا أن يتناول القرآن الكريم جذور قضية الإلحاد المعاصر منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة. حيث تناول القرآن أشكال الطمس والانحراف المختلفة التي يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية، ووجه الدعوة إلى العقول للتفكر والتدبر والتأمل وإعادة النظر في المادة والروح والغيب، الأمر الذي يحتاج من الملاحدة إلى المزيد من إعادة النظر والقليل من التأني.